سرُّ الإنسان في ضوء سرِّ المسيح

الأب فاضل سيداروس اليسوعيّ*

كيف يوحي المسيح إلى الإنسان بسرِّه الحقيقيّ إنسانًا خُلق «على صورة الله كمثاله»؟ بالحقيقة إنّ هذا السؤال الأنثروبولوجيّ يوصلنا إلى أن ندرك كيف يدعو الآبُ الإنسانَ إلى أن يكون على مِثال صورة الابن وإلى الانْجاه نحو مجيئه الثاني بإعداده إعدادًا فعّالًا، وكيف يتمُّ كلّ ذلك بتأثير من الروح القدس.

إليكم نصًّا منْ نصوص المجمع الڤاتيكانيّ الثاني يمكننا أن نسترشد به.

«إنّ سرّ الإنسان لا يتّضح حقًّا إلّا في سرّ الكلمة المتجسّد. ذلك بأنّ آدم، الإنسان الأوّل، كان صورة الإنسان الآتي، أي صورة المسيح الربّ (روم ٥/ ١٤). فالمسيح، وهو آدم الجديد، في الوحي نفسه بسرّ الآب، يُظهر الإنسان لنفسه ويكشف له سموّ دعوته» (الفرح والرجاء ٢٢).

إنّ يسوع المسيح هو الذي يوحي إلى الإنسان بملء كيانه الإنسانيّ: يسوع المسيح في سرّ بنوّته الإلهيّة ووضعه الآدميّ الذي يمتدّ من تجسُّده إلى تمجيده الذي سينكشف تمامًا عند مجيئه الثاني؛ يسوع المسيح ابن

(*) رئيس إقليم الشرق الأدنى في الرهبانيّة اليسوعيّة. عضو «لجنة اللاهوت العالميّة» الڤاتيكانيّة. والنصّ المنشور هنا هو مداخلة عُرضت في اجتماعات اللجنة المذكورة بروما في كانون الأوّل/ديسمبر ٢٠٠١، وهي تندرج في موضوع «الإنسان على صورة الله».

الآب الحبيب الوحيد وبكر إخوة كثيرين؛ يسوع المسيح تمامًا من جهة الله وتمامًا من جهة البشر، والوسيط بين الله والبشر. فإنّ فرادة سرّه الإلهيّ - البشريّ تكشف للإنسان سرّه هو أيضًا الإلهيّ - البشريّ بالمشاركة؛ يسوع المسيح كما يصف عملَه النشيدُ الذي يفتتح الرسالة إلى أهل فيلبّي.

ولكي يكون عَرضُنا واضحًا، نسترشد بأوقات الزمن البشريّ الثلاثة: ماضي الإنسان المطلق - أو «البروتولوجيا» (Protologie، أي «علم البدايات») - ومستقبله المطلق - أو «التيولوجيا» (Téléologie، أي «علم الهدف النهائيّ») - وحاضره الوجوديّ - أو «الكايْرولوجيا» (Kairologie، أي «علم الزمن الحاضر»). ونعني بـ«المطلق» سرّ مشيئة الآب، وقصده الأزليّ، ومبادرته المجّانيّة المتجدّدة دائمًا؛ وهو ما يمكننا أن نَنعته ببُعد الإنسان الأنطولوجيّ (Ontologique). ونقصد بـ«الوجوديّ» (Existentiel) ذلك السرّ الإلهيّ المُتجسّد في الزمن البشريّ، الذي يتطلّب تعاون الإنسان مع الله تعاونًا حُرًّا، أي البُعد العَمَليّ المختصّ بالحياة والتاريخ البشريّ. فالمُطلق يعني إذًا بوجه خاصّ دعوة الله؛ والوجوديّ يعني بوجه خاصّ تلبية الإنسان وتعاونه مع الله. ولكنّنا سنرى أنّ كلّ مسيرتنا تستمدّ بنيتها من جدليّة عمل الله المجّانيّ الذي يدعو إلى تعاون الإنسان بملء حرّيّته؛ علمًا بأنّ كلّ ذلك يرتكز على شخص المسيح الوسيط، في روح الآب والابن.

ذلك بأنّ الكتاب المقدّس يصف لنا سرّ الإنسان في صلته بشخص المسيح، فيضع المسيحَ في بدء حياة الإنسان وفي وسطها ونهايتها، فهو أساسها وقوامها وغايتها؛ كما أنّ الإنسان يجد في المسيح ملء معنى حياته في تلبيته مشيئة الله والتعاون معه.

١ - <البروتولوجيا>

أو المسيح أصل الإنسان/الإنسان صورة المسيح

إنّ ماضي الإنسان المطلق يضمُّ حقيقتَين متكاملتَين، الواحدة تنطلق

من المسيح نحو الإنسان، والأخرى من الإنسان نحو المسيح. فالإنسان منغمر هكذا في المسيح.

* المسيح، أصل الإنسان

في شأن البدء، يقول الكتاب المقدّس إنّ كلّ شيء خُلق «به» (dia في اليونانيّة) و«فيه» (en)، فهو «الكلمة... حياة ونور كلّ إنسان آتٍ إلى هذا العالَم» (قول ١/١٦-١٧ ويو ١/٣-٤). وإذا أكّد المثل الفلسفيّ السائر أنّ الخَلْق هو من «العدم» (ex nihilo في اللاتينيّة)، فإنّ سرّ خَلْق الإنسان هو من «ملء المسيح» (ex plenitudine) الذي هو، في آن واحد، خالق الإنسان وشفيعه وغايته (راجع، في يوحنّا، المقدِّمة والصلاة الكهنوتيّة). هكذا خُلق الإنسان، بحسب ما قصده الآب؛ وفي المسيح «حياتُه وحركته وكيانه» (رسل ١٧/٢٨)، في صلة أصليّة أساسيّة بشخص المسيح (dia)، وفي صلة باطنيّة به (en) ومتبادلة: المسيح في الإنسان والإنسان في المسيح (راجع يو ١٥). فلا وجود لمصادفة في أصل الإنسان، بل للمشيئة الإلهيّة وقصدُها المحبّة (راجع النشيد الافتتاحيّ في الرسالة إلى أهل أنسس).

إنّ عمل الخلق هو حاضر متواصل، لا عمل في الماضي: «طوبى لمَن يولد دائمًا لله. فإنّه لا ينقطع عن الولادة. فإن أقنعتُك بأنّ مخلّصنا نفسه لم يلده الآب لينفصل عنه مِن ثَمّ بعد ولادته، بل بأنّ الآب ما زال يلده، استطعتُ أن أحملك على أن تؤمن بالأمر نفسه بشأن البارّ. وإذا كنتَ أنت أيضًا تملك روح التبنّي، فإنّ الله لا ينقطع عن ولادتك في الابن، يلدك من عمل إلى عمل، ومن فكر إلى فكر. ذاك هو الميلاد الذي تناله» (أوريجانيس). فإنّ يوحنّا، كما لاحظه بعض المفسّرين، في حوار يسوع مع نيقوديمس، حين يتكلّم على الولادة من الماء والروح للحياة الجديدة الآتية من علُ، لا يستعمل الفعل في صيغة الماضي، بل في صيغة «الماضي الدائم»: «ما من أحد، إن لم يولَد ولم ينقطع عن الولادة من الماء والروح...» (يو ٣/٥-٨).

* الإنسان على صورة المسيح

إنّ الآب قضى منذ الأزل للبشر بأن «يكونوا على مثال صورة ابنه، ليكون بِكر إخوةٍ كثيرين» (روم ٨/٢٩). وهذا ما يوحي إلى الإنسان بمستويَين من وجوده: من جهة، التمثُّل بصورة ابنه، ومن جهة أُخرى تكوين أُخوَّةٍ بين البشر في الابن. لنفحص ذلك عن كثب، بتشديدنا قبل كلّ شيء، كما كتب غريغوريوس النيصيّ، على أنّ «الصورة لا تكون صورةً في الحقيقة إلّا بقدر ما تكون لها جميع خصائص مثالها... فإنّنا نحمل آثار الألوهيّة التي لا تُدرَك بالسرّ الذي فينا». فصورة الله مطبوعة إذًا في عمق أعماق الإنسان، وهي تُكيِّف كلّ وجوده وكيانه، في نوع من «التجانس مع ما هو إلهيّ». ستوقَّف عند بعض الخصائص الإلهيّة، أو قُلْ بعض المواقف التي تُميِّز شخص الابن، مقتنعين بأنّ «كلًّا منها يرغِّب (الإنسانَ) في ما هو يصاهره»، فكلُّ موقف من مواقف الابن يجذب الإنسان إلى التمثُّل به.

إنّ الابن هو اقتبال كلّيّ في أقنومه الإلهيّ وفي شخصه البشريّ على السواء: فهو يقتبل أباه، ويقتبل نفسه منه، ويقتبل منه أن يبثّ معه روحَيهما، ويقتبل منه أن يَخلق معه، ويقتبل منه الخليقة والبشر والتلاميذ، ويقتبل منه رسالته... وهو يلخِّص ذلك بقوله: «طعامي أن أعمل بمشيئة الذي أرسلني وأن أتمَّ عمله» (يو ٤/٣٤). وحتّى بعد قيامته، في أوج مجده الساطع - وهو هبة من الآب - يقول لتلاميذه المجتمعين حوله: «إنّي أُوليتُ كلَّ سلطان...» (متّى ٢٨/١٨)، بمعنى أنّه يقتبل من الآب هذا السلطان. إنّ الاقتبال هو حقًّا الطابع الذي يُميِّز الابن وسِمَتُه الجوهريّة.

والحال أنّنا، حين نقول إنّ الإنسان هو على صورة الابن، ندلّ على أنّه كلّه اقتبال، على مثاله: فالإنسان هو، في جوهره، مدعوٌّ إلى أن يقتبل نفسه من الله، بل وأن يصبح فعل اقتبال: «أقتبل نفسي أكثر بكثير ممّا أنّي أصنع نفسي» (بيار تيّار دي شردان). وهذا ما رفضه آدم وحوّاء، مُفضّلين

أن يكونا «كالآلهة» (تك ٣/٥)، «أن يصنعا نفسيهما»، ولا أن يتقبلا نفسيهما من الله وأن يُطيعاه. أرادا أن «يستوليا، بمعزل عن الله، على أشياء الله، أي <شجرة الحياة> ؛ ولذلك أبعدَهما اللهُ عن تلك الشجرة، لا عن حسد، كما وسوسته الحيّة لهما، بل تجنُّبًا فقط لأن يتألّبا في حالة الكذب وعبادة الصنم الذاتيّ» (مكسيمُس المعترف).

وأمّا في شأن الإنسان المُعاصر - في عظمته وخزيته، وفي سيادته ومحدوديّته - فإنّ تلك الأقوال قد تكون له وجيهة: فهو مدعوٌّ إلى أن يُحقّق نفسه، لا بنفسه وحدها - «وَضْعُ النفس بالنفس» وهو ما يميّز المدينة الأرضيّة كما وصفها أوغسطينس -، بل مع الله، تمثُّلًا بابنه. فهو مدعوّ إلى اقتبال حرّيته ورسالته من الله. وبذلك يُصبح اقتبال النفس من الله موقفًا إيمانيًّا أساسيًّا واعترافًا بأنّ الله هو مصدر الإنسان وأنّه يُعدُّه لأن يجد ملء اكتماله عندما يعكس - في حياته اليوميّة - صورة «ابنه المُقْتَبِل»، «ابنه المُطيع».

ففي مجتمعات مُعَلْمَنة، كيف يمكن الترفيق بين تلك النظرة الإيمانيّة وواقع العديد من ذوي الإرادة الحسنة غير المؤمنين؟ فإنّ الحرّيّة البشريّة تميل إلى أن تصبح مطلقة، وأن تعتمد على ذاتها فقط، وأن تكون مرجعًا مطلقًا لنفسها، وأن تتصرّف بنفسها مستقلّة بذاتها... فلا تعتمد على كائن أعلى وهذا ما ينافي تمامًا فعل الاقتبال والطاعة. ولكن أفلا نستطيع أن نميّز، وراء الظواهر، «بذورًا للكلمة» (semenes du Verbe) بتعبير الآباء، أو <آثارًا لله> بتعبيرنا، لوصف عمل ذوي الإرادة الحسنة؟ أوَلا تظهر <آثار الله> هذه في الغيريّة البشريّة: حين يتقبّل الإنسان نفسه من الآخر، من أبيه وأمّه، من الزوج أو من الزوجة...؟ حين يتقبّل الإنسان الآخَر، القريب أو الغريب، الصديق أو العدوّ، الشبيه أو المختلف...؟ حين يُطيع صوت ضميره؟ حين يتحسّس لحاجات البشر، ولنداءاتهم وصرخاتهم؟... ما أكثر الأعمال الإنسانيّة التي تجسّد «الابن المُقْتَبِل»، «الابن المُطيع»! هذه هي طُرُقٌ نحو الله، نحو «الإله المجهول»! هذا هو صوت الله، وهو فائق الوصف، وغير مُتوقَّع دائمًا، لا بل وحقيقيّ.

إنّ الابن هو أيضًا تبادل البذل، فإنّه يُعيد إلى الآب ما يتقبله منه: «جميع ما هو لي فهو لك» (يو ١٧/ ١٠). فهو يخرج من الآب ويعود إلى الآب (يو ١٣/ ٣)، ويجعل «روحه» في يدي الآب (لو ٢٣/ ٤٦). فتبادُلُ البذل هو إذًا موقف أساسيّ جوهريّ كيانيّ للابن الذي لا يحفظ شيئًا لنفسه، بل يُعيد كلّ شيء إلى الآب. وبسبب ذلك، فإنّ شخصه هو «وجود - للآخر». والنشيد الذي ورد في الرسالة إلى أهل فيلبّي أحسنَ التعبير عن ذلك بقوله: «إنّه لم يَعُدَّ مساواته لله غنيمة، بل أخذ صورة العبد...». فلفظُ «الغنيمة» اليونانيّ (arpagmon) يعني حَفِظَ لنفسه شيئًا كحقّ، وهو نقيض لفظ «التخلّي» (kénosis: فل ٢/ ٦-٧) بمعنى التجرّد وإفراغ النفس وانهياك النفس وحطّ النفس. فتبادُلُ بذل الابن هو إذًا «إفراغيّ» لأنّه وضعُ العبد. غير أنّه، من خلال هذا «الإفراغ»، يُصبح ربًّا (فل ٢/ ٩-١١).

وممّا لا شكّ فيه أنّ كون الإنسان على صورة الابن، يجعله وجودًا إفراغيًّا بصفته عبدًا مثل المسيح، مع الحفاظ على وصفه سيّد الخليقة كهبة مجّانيّة من الله. وأمّا الإنسان المعاصر - في لانهائيّته وضعفه - فقد تعنيه تلك الأقوال: فإنّه لا يفقد سيادته عندما يصبح خادمًا، ولا يفقد عظمته بالعطاء وبهبة نفسه، عِوَضَ أن يحفظ كلّ شيء لنفسه بشكل أنانيّ؛ ولذلك، فإنّ تبادل البذل الإفراغيّ هو بمثابة موقف إيمانيّ وجوديّ، يغرز جذوره في صورة الابن نفسها، ويجد فرحه واكتماله وسيادته في ذلك.

وفي المجتمعات المُعَلْمَنة، أفلا يُعبِّر عن تبادل البذل هذا في ذوي الإرادة الحسنة غير المؤمنين، حين يُعطُون بدَل أن يحفظوا لأنفسهم بحرص شديد؟ وحين يدافعون عن قضيّة الطفل والمريض، والمحروم وغير المرغوب فيه، والمظلوم والمنبوذ...؟ وحين يطالبون بكرامة الشخص والعدالة الاجتماعيّة؟... كلّ هذه والعديد من غيرها أيضًا هي أعمال تُجسّد «الابن الباذل»!

من المستوى الشخصيّ، نتنقل إلى المستوى الجماعيّ والاجتماعيّ والسياسيّ: فالإنسان مفطور على أن يُجسّد في حياته صورة «البكر لإخوة

كثيرين» (روم ٨/ ٢٩). فكما أنّ الله اختار شعبًا وكوّنه، فإنّ المسيح أسّس الكنيسة، التي هي شعب مؤمنين هو بكرهم وهم جمهور الإخوة. وهذه علامةٌ حسّيّة على أنّه «هدم حتًّا الحاجز الذي ينفصل» بين البشر، فجعل منهم «جماعةً واحدة»، وأصبح هو «خلاصهم» (أف ٢/ ١٤).

وبناءً على ذلك، فإنّ العلاقات بين البشر لم تَعُدْ مبنيّةً وقائمة على كون «الإنسان ذئبًا للإنسان» (هُوبْس)، ولا على «العنف» والعلاقة بين «السيّد والعبد» (هيغل) في «صراع الطبقات» (ماركس)، ولا على «إرادة القوّة» (نيتْشِه)...، فهذه هي مفاهيم أنثروبولوجيّة تُحلِّل المظاهر فقط، ولا تأخذ بعين الاعتبار الإنسان في واقعه الشامل، واقعٍ خلاصه في يسوع المسيح، حيث العلاقات البشريّة مبنيّة على أُسس أخرى، وهي علاقات على نمط «أخ/أخ» في «الأخ البكر» الذي كان «وديعًا ومتواضع القلب» (متى ١١/ ٢٩). والحال أنّ ذلك النمط من العلاقة بين الإخوة ليس ممكنًا إلّا لأنّهم أبناء للآب الواحد في «الابن الوحيد»، «الابن الحبيب» (يو ١/ ١٨؛ مر ١/ ١١). ولذا فنحن نوافق على ما يقوله غريغوريوس النيصيّ: «ما يكوِّن الصورة الوحيدة للذي هو، هي الطبيعة (البشريّة) كلّها، مُمتدّةً من بداية (التاريخ) إلى نهايته».

أمّا علاقات السلطة، فهي مدعوّة إلى أن تصبح خدمة حيث «يحتلّ الأكبر مكان الأصغر، والذي يأمر مكان الذي يخدم»، على صورة يسوع نفسه الذي جعل من نفسه «خادمًا» (لو ٢٢/ ٢٤-٢٧)، مع أنّه «السيّد والمعلِّم» (يو ١٥/ ١٤). وهنا أيضًا، ليست السيادة والخدمة، في عين الإنسان، حقيقتين متناقضتين، بل هما وجها حقيقةٍ واحدة.

وفي ما يختصّ بالعلاقة «الرجل/المرأة»، التي أرادها الله منذ البداية، فإنّها مُطهَّرة من كلّ تمييز أو تفوُّق، إذ إنّه «لم يَعُدْ في المسيح لا رجل ولا امرأة» (غل ٣/ ٢٨)، لا بمعنى أنّ التمييز الجنسيّ قد تلاشى، بل بمعنى أن لا أولويّة أو تسلُّط من الواحد على الآخر. وأمّا البُعد الجنسيّ نفسه، فهو مدعوّ إلى أن يُعاش ويُستوعَب ويُصعَّد في حقيقة

أسمى، حقيقة «الحياة الأبديّة والقيامة من بين الأموات، حيث لا وجود للزواج» (لو ٢٠/ ٣٥).

والوجود الاجتماعيّ مدعوّ هو أيضًا إلى أن يكون على صورة وجود الابن الذي قال: «ليس لأحدٍ حبّ أعظم من أن يبذل نفسه في سبيل أحبّائه» (يو ١٥/ ١٣)، وأن يبذل نفسه «حتّى الموت» (أف ٢/ ٨). وهذا البذل الإفراغيّ هو دعوة تقوم على مثال الابن البكر: «إنّ المسيح قد بذل نفسه في سبيلنا؛ فعلينا نحن أيضًا أن نبذل نفوسنا في سبيل إخوتنا» (١ يو ٣/ ١٦).

وإذا ما نظرنا إلى مجتمعاتنا المعاصرة، فإنّنا أمام قِيَم إنجيليّة تقوم في أساسها على صورة الابن. والحال أنّ العديد من الناس ذوي الإرادة الحسنة لا يعرفون يسوع المسيح: أفليسوا يعيشون هذه القِيَم أو بعضها؟ فكلّ ذلك هو <آثار لله> في حاليّة البشريّة السائرة إلى مزيد من التأنّس، والباحثة عن مزيد من الأُخوّة، والساعية لمزيد من الوحدة...!

ومن جهة أخرى، فإنّ المسيح، الذي هو طريق نحو الآب، هو أيضًا صورة الآب (تو ١/ ١٥)، يرى ما يعمله الآب ويُصغي إلى ما يقوله الآب (يو ٥/ ١٩ و٨/ ٢٦). ولذلك: فإنّه يوصي الإنسان بأن يكون كاملًا ورحيمًا على مِثال الآب (متى ٥/ ٤٨ ولو ٦/ ٣٦). وبما أنّ الآب هو بذل تامّ أساسه المحبّة (راجع يو ١٧/ ٢٢-٢٤)، وينبوع كلّ بذل، فإنّ أبناءه مدعوّون إلى أن يصبحوا بذلًا مثل الابن بالروح. وإذا كان بعض الناس يعرفون أنّهم أبناء ويختبرون هذه البنوّة، فإنّ آخرين - ممّن لا يعرفون ذلك ولا يختبرونه - يستطيعون هم أيضًا أن يُظهروا في حياتهم كمال الآب ورحمته، مثل الابن نفسه بالروح نفسه.

وأخيرًا، فإنّ المسيح يهب روحه الذي هو روح محبّة (راجع روم ٥/ ٥) وعلاقة محبّة بين الآب والابن (أوغسطينس)؛ والذين يسكن فيهم روح المسيح مدعوّون إلى أن يصبحوا هم أيضًا علاقة محبّة بين البشر. وبما أنّ الروح هو حرّيّة مطلقة، فإنّ الإنسان مدعوّ إلى أن يحيا حرًّا (٢ قور ٣/

١٧). أمّا الذين لم ينالوا مَسحة الروح، فإنّهم يستطيعون أن يحيوا هم أيضًا المحبّة والحرّيّة، لأنّ الروح يُجري فيهم أيضًا أعمال محبّة وحرّيّة.

في كلّ ما سبق، أظهرنا على المستوى الشخصيّ والجماعيّ، ما للبُعد الأنطولوجيّ من تجسيد وجوديّ في حياة الإنسان الواقعيّة، هذا الإنسان المَدعوّ إلى أن يكون على صورة الابن، ومن ثَمّ على صورة الآب والروح.

٢ - <التليولوجيا>

أو المسيحُ اكتمال الإنسان/ الإنسان الموجَّه نحو مجيء المسيح

إنّ مستقبل الإنسان المطلق يعني حقيقتَين متكاملتَين: من جهة، المسيحَ، اكتمال حياة الإنسان وملء معناه؛ ومن جهة أخرى، الإنسانَ الموجَّه نحو المسيح في مجيئه الثاني، بقدر ما هو كائن إسكاتولوجيّ، (الپاروزيا parousie) پاروزياكيّ. سيتركّز خطابنا على «المجيء الثاني» وهو يُمثّل قُطبًا من «الأخيريّة» (الإسكاتولوجيا)، علمًا بأنّ القطب الآخر هو «ملكوت» الآب (بازيليا). فأمّا موضوعنا فسيُركّز على المسيح في سرّ مجيئه الثاني المجيد.

* المسيح اكتمال الإنسان

إنّ بدء الإنسان المطلق يستلزم جدليًّا نهايته المطلقة؛ ذلك بأنّ المسيح ليس هو مصدر الإنسان المُطلق فقط، بل هو اكتماله المطلق وغايته الجذريّة الكاملة أيضًا. وهذا ما يوحي به الكتاب المقدّس، حين يَردُ فيه أنّ كلّ شيء خُلق «نحوه» (eis) و«له» (di) (قول ١/ ١٦). فالخليقة كلّها هي في حركة جَذْب نحوه (eis)، وله (di).

والمشيئة الإلهيّة، وهي أن يكون المسيح ملء الإنسان، تتحقّق في الإسكاتولوجيا. ففيها يندرج مفهوم «الشَّبَه» بين الإنسان والمسيح، بحسب ما يوحي به قول يوحنّا الرسول: «حين يظهر (المسيح) لنا، نُصبح

أشباهه» (١ يو ٣/٢). فإنّ الروح سيرسم عندئذ صورة الشخص الإسكاتولوجيّة على مِثال المسيح. لكنّ الإنسان يشارك في ذلك المِثال الإسكاتولوجيّ منذ هذه الدنيا، في زمن تاريخه؛ وسيظهر هذا لنا في وقت لاحق حين سنتكلّم على الإنسان وحاضره الوجوديّ.

حسبُنا الآن أن نذكّر بتعليق أوريجانيس على ذلك، مميّزًا بين «الصورة» و«المِثال». ففي نظره، تعني الصورة «المصدر»، في حين يعني المِثالُ «الاكتمالَ» في الآخرة. ذلك بأنّ جسد الإنسان سيُمجَّد عندئذ، على صورة المسيح القائم من الموت «وجسده المجيد» (١ قور ١٥/٤٧-٤٩ وفل ٣/٢١). إنّ صورة المسيح الأصليّة ستصبح كاملة وتامّة عند مجيئه الثاني المجيد. هذا وإنّ أوريجانيس قد جسّد ذلك باستناده إلى صلاة يسوع الكهنوتيّة: «من الوحدة نفسها التي هي بينك وبيني، ليكونوا واحدًا فينا... يا أبتِ، أريد أن يكونوا معي حيث أكون» (يو ١٧/٢١ و٢٤). ففي نهاية الأمر، يتطابق المِثال الإسكاتولوجيّ والوحدة الإسكاتولوجيّة، بمعنى أنّ اتّحاد المسيح بالبشر يتحقّق إذ أصبحوا على مِثاله تمامًا.

وبوجيز العبارة، فإنّ الله يهب للإنسان مستقبلًا، وهو مستقبل مجيء المسيح في مجده، حيث الروح القدس هو المحرّك والله الآب هو الغاية. والله يُحقّق هذا المستقبل في صميم الواقع البشريّ وتاريخ البشريّة ومن خلال الإنسان، الأمرِ الذي يُضفي معنى على الإنسان، فيوجّهه نحو هذا المستقبل، كما نراه الآن. ويفتح هذا المستقبلُ مجالًا لحرّيّة الإنسان ليتعاون مع الله في تحقيق هذا المستقبل، كما سنراه لاحقًا.

* الإنسان موجَّه نحو المسيح في مجيئه الثاني

يؤكّد الكتاب المقدّس أنّ الله «أطلعنا على سرّ مشيئته (...) ليسير بالأزمنة إلى تمامها: فيجمع تحت رأس واحد (anakèphalaio)، هو المسيح، كلّ شيء» (أف ١/٩-١٠). فالمسيح «يختصر» (Recapitulatio إيريناوس) الخليقة كلّيا؛ «والقامة التي توافق كمال المسيح» (plérôma)

هي شخص المسيح الذي يختصر ويجمع جميع البشر وكلَّ الكون في شخصه المجيد. ولذلك، فإنّ البشر لهم حقًّا توجُّهٌ وهو المسيح. وكما أنّهم ليسوا ثمرة المصادفة أو العدم، فهم ليسوا منقادين لغير المعقول أو للّامعنى.

وهناك تعابير كتابيّة أخرى كثيرة تدلّ على الحقيقة الإسكاتولوجيّة عينها: «رؤية» الله «وجهًا لوجه»، «معرفته»، «القيامة» مع المسيح، «الصعود إلى السموات» معه، المشاركة في مجده، مجد التأليه بالروح القدس، عربون «سماء جديدة وأرض جديدة» (رؤ ٢١/ ١ ت)، استباق «تجلّي أبناء الله» في خِضَمّ «الزمن الحاضر» (روم ٨/ ١٨-١٩)... إنّها تعابير استوحى منها أوغسطينس في كلامه على المحبّة - سنحبُّه ونكون من أحبّائه - و«الفم على الفم»، و«القيام في حضرة العريس»... وبذلك تتحقّق تمامًا تلك الصرخة التي علت من قلب ذلك الباحث عن الله: «صنعتَنا لأجلك، فلن يعرف قلبنا الراحة ما لم يستريح فيك».

هذا وإنّ المسيح كان قد وعد بأنّه سيعود (يو ١٤/ ٣)، فكانت الجماعة المسيحيّة الأولى لا تنقطع عن الترنيم: «مارانا تا»: «يا ربّ، تعالَ!» (رؤ ٢٢/ ١٧ و٢٠ و١ قور ١٦/ ٢٢)...، وكأنّها مشدودة إلى المسيح ومجيئه، ومُنجذبة بهذا المجيء، ومُتشوّقة إليه من صميم إيمانها ورجائها ومحبّتها، علمًا بأنّ مجيء المسيح هذا يتطابق مع مُلك الآب «ليكون كلّ شيء في كلّ شيء» (١ قور ١٥/ ٢٨). وقد جمع أمبروسيوس المجيء الثاني بالملكوت في كلمته الشهيرة: «حيث يكون المسيح، يكون المُلك».

وذلك المجيء الثاني يُفهَم في آن واحد أنّه حاليّ وأنّه لم يتمّ حتّى الآن. فالقيامة والعنصرة تفترضان أنّ المجيء الثاني هو حاليّ، لأنّهما تفتتحانه وتُدخلانه إلى عالم البشر، وتستبقان تحقيقه النهائيّ، كما أنّ المجيء الثاني يعمل بطريقةٍ سرّيّة في الأشخاص والكون: فإنّه يجعل الإنسان متجلّيًا ومؤلَّهًا، ويُنير «كلّ إنسان آتٍ إلى العالم» (يو ١/ ٩)، ويُحييه (يو ١/ ٤)، ويُشجّع عمله ويُنشّطه، ويضفي معنى واتّجاهًا على تاريخه...

والمجيء الثاني يعمل أسراريًا أيضًا؛ فإنّ كلّ سرٍّ من أسرار الكنيسة يسبق المجيء الثاني. فالإفخارستيا بوجه خاصّ هي ذلك الاستباق للوليمة الإسكاتولوجيّة والمشاركة التامّة (Koinonia) في الروح، مع المسيح والآب والبشريّة المجيدة والمنتقلة من هذا العالم إلى عالم الله. هذا وإنّها استباق «فيلوكاليّ» (أي جماليّ)، وتُعيد فيه النهايةُ البداية، حين رأى الله أنّ كلّ شيء كان جيّدًا وحسنًا وسعيدًا (هذا هو معنى لفظ «طوب» العبريّ)، لا بل بشكل أروع. إنّ الإفخارستيا هي الموضع حيث تتحقّق صحّة الكلام الذي يضعه دوستويفسكي على لسان أحد أبطاله: «إنّ الجمال هو الذي سيُخلِّص العالم».

إن كان هناك وجه فيلوكاليّ للمجيء الثاني المستَبَق، فهو، ولا شكّ، وجه مريم، «أَمَة الربّ الوضيعة» وبالتالي «الطوباوية» (راجع نشيد مريم). فإنّ إعلان <انتقالها> يدلّ على أنّ عمل الخلاص كلّه استُرعب فيها وأنّ انتصار ابنها القائم من الموت يسطع فيها؛ أرادت الكنيسة بذلك أن تُعبِّر عن رجائها، خلافًا لكلّ رجاء، في أنّ البشريّة كلّها - بالرغم من خطيئتها - ستُشارك، على مِثالها، في مجد ربّها وستّحد به.

وأخيرًا، فإنّ المجيء الثاني هو اكتمال وملء، وجذريّة المخفيّ وفكّ رموزه.

ومع ذلك، فإنّه لم يتحقّق تمامًا حتّى الآن، لأنّ تحقيقه يقع في الزمن، ويتمّ في تاريخ البشريّة. ولذلك، فإنّه يستدعي مساهمة الإنسان. وهذا ما سنُثبته الآن.

٣ - <الكايْرولوجيا>

أو المسيح مرجع الإنسان/الإنسان العامل للمجيء الثاني

في ضوء الماضي والمستقبل المُطلق، وبين البروتولوجيا والتليولوجيا، يقع الحاضر الوجوديّ الذي «يُحوِّله» الكايرُسْ (أي الزمن)، ذلك التحوّل الحاسم في تاريخ البشريّة، الذي يمثّله مجيء

المسيح (بول تِلّش). سنتوقّف هنا أيضًا على وجهين متكاملين: الوجه الشخصيّ لمرجعيّة المسيح في حياة الشخص، والوجه التمهيديّ لمجيئه في المجد بعمل الإنسان.

* المسيح مرجع الإنسان

«بالمسيح قوام كلّ شيء» (قول ١/ ١٧)، وهو الذي «أنشأ العالمين» (عب ١/ ٢). فإنّ الكون كلّه يتّسم بطابع المسيح الذي لا يزول: «هو صورة الله الذي لا يُرى وبكر كلّ خليقة» (قول ١/ ١٥). وهو وسيط بين الله والبشر ويُنجز عملَ الخلق في شخصه، وخلاص الخليقة بسرّه الفصحيّ، ويتمّمها بمجيئه الثاني. والحال أنّ اعتبار المسيح ملء مرجع الإنسان في حياته اليوميّة وفي تاريخه البشريّ، يندرج في داخل ذلك الوحي. فقد قال بولس الرسول: «أنتم للمسيح» (dè)، دالًّا بذلك على أنّ الإنسان ينتمي إلى المسيح وحده، كما أنّ المسيح هو للآب (١ قور ٣/ ٢٢ وراجع لو ٢/ ٤٩). فإنّ المسيح يُضفي على الإنسان ملء معنى تاريخه وعمله وحرّيّته، وقد أصابتها الخطيئة وأصلحها الخلاص.

إنّ المسيح هو الذي - بسرّ تجسُّده وموته وقيامته - أصلح في الإنسان صورة الله وصورته الشخصيّة. لكنّ الخطيئة، إذا صحّ أنّنا حجبت هاتَين الصورتَين وشوّهتهما، لم تُلغِهما ولم تُلاشِهما، لأنّ مشيئة الآب هي «أن يصالح به (dia) ونحوه (eis) كلّ موجود» (قول ١/ ١٩-٢٠). فهو الذي «هدم الحاجز الفاصل» وأصبح «حجر الزاوية» (أف ٢/ ١٤ و٢٠). فالإنسان مغفور له في صميم كيانه الخاطئ. وهو يختبر، بفضل الروح القدس، أنّ المسيح يُخلّصه ويبرّره. لقد أحسن مكسيمُس المعترف تلخيصَ إيمان آباء الكنيسة بإثباته أنّ المسيح، بفضل تجسُّده، «أعاد الطبيعة البشريّة إلى توافقها لنفسها». ذلك بأنّ التجسُّد ليس هو انضمامًا (incorporatio) فقط إلى البشريّة، بل هو اندماج (concorporatio) فيها أيضًا (هيلاريوس): فإنّ الكلمة، إذ أصبح إنسانًا شبيهًا بجميع البشر، ما عدا الخطيئة، دمج في شخصه البشريّة الخاطئة ولم يضمّها فقط، صائرًا هو

نفسه خطيئة، لكي يُحرِّر الإنسان من خطيئته (٢ قور ٥/ ٢١)؛ إذ إنّ المسيح لم يستطع أن يُخلِّص إلّا ما سبق له أن اضطلعه أي دمجه (أثناسيوس). وإذا صحّ أنّه اتّخذ صورة العبد (فل ٢/ ٧)، صورة الإنسان الساقط، فلكي يُعيد فيه، ولا شكّ، صورة الله الأصليّة.

والبشريّة كلّها أيضًا هي التي كان المسيح يحملها في الجلجثة (قبريانس وكيرلُّس الإسكندريّ ولاون الكبير) والتي قامت معه من الموت (غريغوريوس النيصيّ).

والخلاصة أنّ «الروح نزل على ابن الله الذي أصبح ابن الإنسان، وقد تعوّد معه أن يسكن في الجنس البشريّ وأن يرتاح بين البشر» (إيريناوس)؛ فطوالَ ثلاثٍ وثلاثين سنة، «تعوَّد» الله الابن مُعاشرة البشر (Accoutumance) وتطبّع بطباعهم وتخلّق بخُلقهم، لكي يبقى ناسوتُه مُشتركًا للأبد في لاهوته ومُتّحدًا به اتّحادًا أبديًا.

ولذلك، فإنّ عمل المسيح هذا يدعو الإنسان إلى التعاون معه والتضافر مع خلاصه. وهذا ما قد يوحي إليه سفر التكوين بذكره أنّ الإنسان على «مِثال» الله، بحسب ما رآه بعض آباء الكنيسة، انطلاقًا من أوريجانيس: فقد يُعبِّر «المِثال» عن مشاركة الإنسان في أن يكون على صورة المسيح: الإنسان الذي «جُعل مُماثلًا لله بمجرّد موافقةٍ منه» (غريغوريوس النزينزيّ). وإذا كان جميع الناس على «صورة» الله، فإنّ «كون الإنسان على «مِثاله» لا يختصّ إلّا بالذين ربطوا بفضل محبّة عظيمة، حرّيّتهم بالله» (دِيادوكُس الفوتيكيّ).

وبالفعل، فإنّ ذلك هو عمل مشترَك بين الروح القدس والإنسان، لأنّ الله هو الذي يأخذ دائمًا المبادرة الأولى، علمًا بأنّ الروح القدس هو ذلك «الفنّان الماهر» (غريغوريوس النزينزيّ) الذي يجعل من الإنسان وجودًا مسيحاويًا وكلمةً إلهيّة، ويجعل الوجه الإنسانيّ «مُطابقًا لصورة الابن» (روم ٨/ ٢٩)، و«يرسم المِثال فوق الصورة». فكلّ ذلك هو من عمل النعمة الذي يبتدئ في المعموديّة ويدوم طوال الحياة، إذ إنّ الإنسان

يختبر، بفضل نوع من «إحساس روحيّ»، أنّه «في طور تكوُّنه على المِثال». وإنّ «استنارة المحبّة وحدها»، تلك التي يُوفِّرها الروح، «تُظهر أنّ الصورة تتطابق تمامًا وجمال المِثال» (ڤيادوكُسْ الفوتيكيّ).

وفي نهاية مطافنا، يمكن القول بأنّ الروح يعمل بمساعدة الإنسان، بفضل انسجامه مع المبادرة الإلهيّة، في «تعاضد» (Synergie) و«اتّحاد وثيق» (Symbiose) بين النعمة الإلهيّة والإرادة البشريّة، كما يروق لآباء الكنيسة الشرقيّين أن يعبّروا عن هذا الأمر. ولذلك، فإنّ الإنسان يُشارك بحرّيّته في أن يُصبح ما يعمل الروح فيه، أي أن يُصبح - في واقع حياته - «صورة» المسيح. والإنسان هو، في ذلك، نَفْس (anima) وقلب (animus)، أي مفعول به وفاعل بالروح. وبهذا المعنى، فالمِثال الأوّل هو، ولا شكّ، والدة الإله؛ فإنّها، بملء حرّيّتها، دعت الروح يُجسِّد فيها ابن الله. لا بل أكثر من ذلك، إذ إنّ المِثال الكامل يبقى مِثال الكلمة المُتجسِّد الذي أظهر تعاونًا بشريًّا فعّالًا وخلّاقًا وقد كان عملًا إلهيًّا في الوقت نفسه.

والمؤمن يُأوِّن كلّ ذلك عن طريق أسرار الكنيسة، ولا سيّما المعموديّة التي هي إعادة التوجيه «نحو» (eis) المسيح و«نحو» موته (روم ٦/ ٣-٥). أمّا نموُّ المعموديّة في حياة المؤمن، فإنّه يتحقّق هو أيضًا «نحو (eis) الذي هو الرأس، المسيح» (أف ٤/ ١٥). نلاحظ هكذا استعمال حرف eis عينه للتعبير، لا عن الخلق الأوّل فقط، بل عن «الخلق الجديد» أيضًا (غل ٦/ ١٥)، وهو «تجلّي أبناء الله» وتجلّي «الخلق» بأجمعه. والحال أنّ هذا التجلّي ليس إسكاتولوجيًّا فقط، بل هو مستَبَق منذ الآن وعامل في صميم «الزمن الحاضر» (روم ٨/ ١٨-١٩)، بالمشاركة منذ هذه الدنيا في «الطبيعة الإلهيّة» (٢ بط ١/ ٤).

ولذلك، فإنّ سرّ الإنسان هو سرّ إعادة خلق (في النظرة الغربيّة بالأحرى) وتجلٍّ (في النظرة الشرقيّة بالأحرى) بالمسيح، في روحه، علمًا بأنّ الإنسان نفسه يتعاون على ذلك. والمثل السائر اللاتينيّ القديم يُحسن

التعبير عن هذا الأمر: «إصلاح ما شُوِّه، وتطابُق ما أُصلِح، وتثبيت ما تطابَق، وتحويل ما ثُبِّت». إنّه «يوم الأحد من الأسبوع»، الذي تذكره أناجيل القيامة، والذي يُذكِّر، بطريقة مُجدِّدة ومتجلِّية، بـ«اليوم الأوّل» من الخلق الأوّل، من خلقٍ لا يزال غير مكتمِل حتّى ينتهي تمامًا في «السموات الجديدة والأرض الجديدة» الوارد ذكرها في سفر الرؤيا، «واليوم الثامن» من التقليد الشرقيّ، الذي افتتحه منذ الآن المسيح الآتي إلى هذا العالم، والعائد إلى الآب، وكلاهما يبذلان روحهما.

✡ الإنسان يعمل للمجيء الثاني

يتلقّى الإنسان رسالة تهدف إلى العمل في سبيل مجيء ابن الإنسان في مجده: «انتظروا واستعجلوا يوم الربّ بقداسة السيرة والتقوى» (٢ بط ٣/ ١١-١٢). وليس الانتظار هنا موقفًا سلبيًّا، بل هو إيجابيٌّ وخلّاق: فالإنسان مدعوّ إلى أن يكون له دور في مجيء المسيح؛ وهو قادر على استعجال المجيء الثاني أو تأخيره، لأنّ الثقة التي يوليه المسيح إيّاها عظيمة. وهذه الرسالة تتجسّد في صميم حياته البشريّة، على مستويات وبطرق مختلفة.

واضح هو قول الربّ الذي يدعو خدّامه إلى السهر وإلى انتظار مجيء العريس (متّى ٢٥/ ١-١٣ وراجع ١ طيم ٥/ ١-٧ وروم ١٣/ ١١-١٢ ورؤ ٣/ ٣...)، إلى سهرٍ يجمع بين الصلاة (لو ٢١/ ٣٦ ومتّى ٢٦/ ٤١) والتجرُّد (لو ٢١/ ٣٤ ومتّى ١٩/ ١٢ و١ قور ٧/ ٢٥-٤٠ وفل ٣/ ٢٠ ورسل ٢/ ٤٢-٤٧...). وما يُبرِّر ذلك هو وشاكة المجيء الثاني. فقد كتب بولس الرسول: «إنّ الزمان يتقاصر...» (١ قور ٧/ ٢٩). إلّا أنّ تلك الوشاكة ليست زمنيّة - كما ظنّ المسيحيّون الأوّلون وغيرهم في جميع الأجيال حتّى اليوم - بل يدور الكلام على وشاكة الوضع الجديد الجذريّ الذي افتتحه قيامة المسيح وأقامه موهبة الروح.

هذا وإنّ رسالة الإنسان تشمل أيضًا شنّ معركة المسيح على رئيس هذا العالم، إذ إنّ المجيء الثاني تسبقه تلك المعركة بين النور والظلمات،

وبين الحقّ والكذب، وبين الإيمان والإثم... (راجع إنجيل يوحنّا بخاصّة، ورؤ ١٢ و١٩/١٩ و٢٠/٧ ت و١ يو ٢/١٨ و٤/٦ وأف ٦/ ١٢...). وهذه المعركة تقع على السواء في صميم قلب الإنسان الخاطئ، وفي وسط المجتمعات البشريّة التي أفسدتها «هياكل الخطيئة» (يوحنّا بولس الثاني). أمّا انتصار المسيح النهائيّ، فليس هو موضع أمل، بقدر ما هو قد تمّ فعلًا منذ الآن بسرّ موته وقيامته. -ولقد استطاع يسوع أن يقول قبل موته: «إنّي قد غلبتُ العالم» (يو ١٦/ ٣٣). لكنّ «إسكاتولوجيّة المجد» هذه هي ثمرة «إسكاتولوجيّة الصليب»؛ والمجيء الثاني هو «علامة الصليب وعلامة نقيضه»، وفقًا لتعابير مأخوذة من الإصلاح الإنجيليّ؛ و«قدرة القيامة» تفترض «صليب الواقع» (مولْتمان)، فإنّ البشريّة تبقى خاطئة وفي حاجة إلى خلاص الله.

وهذا الانتصار يُأوَّن في الكنيسة (رؤ ١١/١٩ ت)، في خضمّ تعاونها مع الله في المعركة ضدّ الشرّ ولا سيّما «سرّ الإلحاد العامل» (٢ تس ٢/ ٧). وممّا يحثّها على خوض المعركة هذه، رجاؤها أنّ المسيح قد انتصر فعلًا على جميع قوى الشرّ، ولا سيّما الخطيئة والموت، وما على الكنيسة إلّا أن تخوض المعركة بقوّة انتصار المسيح وبقدرة عمل الروح.

إنّ انتصار الخير هذا على قوى الشرّ ما زال يشغل بال البشر، ولقد ابتكروا، على مرّ تاريخهم، صورًا مختلفة له: التقمُّص الشرقيّ، والعرفان البوذيّ، والمعاودة الأوريجانيسيّة حيث الهالكون سينالون الخلاص، و«المساء الكبير» الماركسيّ حيث ينتهي صراع الطبقات، و«أسطورة التقدُّم» الخاصّ بالقرن العشرين...؛ وسيشاهد التاريخ يوطُيّات غيرها، وهي ثمرة سخاء عظيم ورغبة شديدة فُطر عليها قلب كلّ إنسان. ومع ذلك، فإنّ انتصار المسيح في كنيسته بروحه، ليس هو محاولة، وحتّى لا وعد فقط، بل هو وعد قد تحقّق فعلًا بسرّ موته وقيامته وإرساله روحه؛ كما أنّه رسالة، على الإنسان أن يأوِّنها، بقدرة الروح في تاريخه البشريّ.

من هذا المنطلق يجب النظر، في تاريخ البشريّة، إلى جميع الأفراح

والأحزان، وجميع أنواع النجاح والفشل، وكلّ ثِقَل النعمة والخطيئة، وجميع الطرق التي تؤدّي إلى المحبّة والعقبات التي تحول دونها، وكلّ تقبُّل وكلّ رفض له، وكلّ ما يستعجل وما يؤخّر مجيء المسيح وإقامة ملكوت الآب، وكلّ ما تُمثّله حياة البشر وأعمالهم وعلاقاتهم وأفكارهم... فذلك كلّه يتحقّق في آلام المخاض، لا بل في الفرح أيضًا بأنّ عالَمًا جديدًا يولد (يو ١٦/ ٢١)، عالَمًا يحمل الاسم الجديد، اسم الحَمَل المذبوح في «أورشليم الجديدة» (رؤ ٣/ ١٢).

وفي انتصار المسيح هذا، تُمثّل المحبّة عنصرًا مُمَيِّزًا، ذلك بأنّ يسوع قد ربط مصيره ربطًا وثيقًا بمصير البشر، بتطابقه مع أفقر الناس، وقد حَفظوا دائمًا في قلبه بـ«محبّة تفضيليّة» (يوحنّا بولس الثاني): «كلّ ما تصنعونه لواحد من إخوتي هؤلاء الصغار، فلي تصنعونه» (متّى ٢٥/ ٤٠). أفلا نستطيع أن نفهم دهش البشر، من مؤمنين وغير مؤمنين، في يوم الدينونة - «متى رأيناك...؟» (متّى ٢٥/ ٣٧-٣٩ و٤٤) - بأنّه كَشْفٌ تامّ عن جميع أعمالهم الصالحة أو الشرّيرة؟ فقد ربط المسيح مجيئه الثاني بإقامة «حضارة المحبّة» (بولس السادس)، و«إنجيل الحياة» (يوحنّا بولس الثاني): «مَن تلقّى وصاياي (وصيّة المحبّة الوحيدة) وحفظها، فذاك الذي يحبّني، والذي يحبّني يحبّه أبي فأُظهِر له نفسي» (يو ١٤/ ٢١)؛ فإنّ المسيح يأتي ويُظهِر نفسه للذين يحبّون؛ فالذي يستعجل مجيء المسيح هو الذي يحبّ، لأنّ الله محبّة، والمجيء الثاني المجيد هو ثمرة ممارسة المحبّة في تاريخ البشر، ذلك التاريخ الذي هو «الله في المصير» - كما يقول المُصلحون الإنجيليّون - بقدر ما ارتبط الله ارتباطًا نهائيًّا بالبشر منذ أن تجسّد، فجعل من تاريخهم تاريخه، ومن مصيرهم مصيره.

وذلك الانتصار هو، في نهاية المطاف، عبارة عن إدخال الخليقة كلّها في مجد الله، وقد عهد الله بها إلى الإنسان منذ أن أبدعها. ذلك بأنّ المسيح الممجَّد، وهو صورة الله الكاملة (٢ قور ٤/ ٤ و٦)، يُشرك الإنسان في مجده، جاعلًا إيّاه سيّدًا على الخليقة، ومُحدِّدًا رسالته في السير بهذه الخليقة إلى اكتمالها، عَبرَ تقلُّبات التاريخ الموسوم بطابع

الخطيئة: «فقد أُخضعت للباطل (. . .)، ومع ذلك لم تقطع الرجاء، لأنّها هي أيضًا ستُحرَّر من عبوديّة الفساد لتُشارك أبناء الله في حرّيّتهم ومجدهم. فإنّنا نعلم بأنّ الخليقة جمعاء تئنُّ إلى اليوم من آلام المخاض. . .» (روم ٨/ ٢٠-٢٢). فالإنسان الذي حرَّره المسيح وخلّصه ومجّده، وأحياه الروح وجلّاه وألّهه، هو مدعوّ إلى محاربة الخطيئة ونتائجها فيه، ومحاربة «هياكل الخطيئة» في المجتمع، وبذلك فإنّه مدعوّ إلى «أَنْسَنَةِ الخليقة» (يرْج بولْغاكوف)، والسير بها إلى الملء وإلى مجد الله الذي يُشارك فيه أبناؤه: «الاتّحاد الإلهيّ - الإنسانيّ - الكونيّ»، العزيز على قلب المفكّرين الروس. والأب تيّار دي شَرْدان من جهته يُعبِّر عن ذلك بلفظ «التأليه»، جامعًا بين ما هو إلهيّ وأسراريٌّ وإنسانيٌّ في عمل واحد؛ فيقول بأنّ الكون هو «مؤلَّه بالتجسُّد، ومؤلَّه بالإفخارستيا، وقابل للتأليه بتعاوننا».

إنّ ذلك «اللاهوت الكونيّ» (Théologie cosmique) الذي يُناشد به الشرق، ويعمل به الغرب وإن كان بتردُّد، لا يرادف على الإطلاق «ديانةً كونيّة» جديدة يندمج فيها البُعد الروحيّ والنفسيّ والجسديّ، وينصهر فيها الفرد في الكلّ، والحرّيّة البشريّة في حرّيّة أسمى بانسجام كامل مع الكون، ويُمتصّ فيها الماضي والمستقبل في ملء اللحظة الحاضرة. . .، كما تدّعيه بعض الأديان والفلسفات الآتية من الشرق الأقصى. وكذلك الأمر، فليس «اللاهوت الكونيّ» بمثابة «ديانة كونيّة» (Religion œcuménique) جديدة تتّحد فيها أخيرًا مختلفُ أديان العالم. . . إنّ جميع تلك الرؤى «المُتصوِّفة العلميّة» (mystico-scientifique)، التي راجت في أيّامنا هذه، هي بعيدة كلّ البعد عن «لاهوت كونيّ» مسيحيّ. مع أنّ هذا اللاهوت المسيحيّ لا يجوز له أن يتجاهل تلك التيّارات المعاصرة، بل من مصلحته أن يستفيد حتّى من تطرُّفها لتشييد خطاب لاهوتيّ يأخذ بعين الاعتبار الكون والمادّة والجسد، شرط أن يتجنّب الوقوع في المذهب المادّيّ أو المذهب الروحانيّ القديمَي العهد في الفكر الدينيّ العالميّ. وتجاه رؤية «الانصهاريّة» (fusion)، يجب عليه أن يُبرز «لاهوت

الشركة» (Théologie de communion)، أي خطابًا لاهوتيًا مبنيًا على المشاركة حيث المسافة تسمح بالعلاقة، وحيث العلاقة تحترم الفوارق، وحيث الفوارق تُمكّن من ازدهار مختلف الحرّيات، وحيث تُصبح الحرّيات رسالة يعهد بها ربّ الكون إلى الإنسان خليفته في الكون.

إنّ «لاهوت البيئة» (Théologie de l'Ecologie) يندرج تمامًا في إطار فكرة ذلك «اللاهوت الكونيّ»: فإنّ «علم البيئة» (Ecologie) لا يستبدف فقط رفاهيّة أفضل للإنسان، بفضل نوعيّة حياة أرقى؛ فلو صحّ ذلك لدلّ على أنانيّة و«قلّة إدراك صبيانيّة»، وفقًا لحكم إيريناوس. فإنّ «لاهوت البيئة» يقوم في جوهره على رسالة يعهد بها الله الثالوث إلى الإنسان، وهي تهدف إلى امتلاء الأرض والسيطرة عليها وإخضاعها باحترام، علمًا بأنّ غايته النهائيّة هي السير بالخليقة إلى ملء اكتمالها. وبذلك يظهر الإنسان بمظهر السبيل الوحيد الذي يقود الخليقة إلى الله، كما أنّ الخليقة هي السبيل الذي يؤدّي بالإنسان إلى الله. والإنسان، إذ يتحمّل هذه الرسالة، يصبح، على صورة المسيح، كاهن الخليقة حقًّا، مُقرّبًا إيّاها، في الروح القدس، للآب خالقها. وينبغي أن يمتاز «لاهوت البيئة»، على مثال أسرار الكنيسة ومريم، بوجه فيلوكاليّ، إذ يسعى أن يجعل الخليقة جميلة، فإنّ المسيح هو «أجمل بني آدم» (مز ٤٥/٣) ويريد أن تكون الخليقة على صورته، كمثاله: ورأى الله أنّ ذلك «طوب»، أي حسن وصالح وجيّد وخير.

إنّ تحليلنا قد ميّز بالفعل صعيدين: عمل الله وسعي الإنسان، الطرق الروحيّة والطرق الدنيويّة. أفلا يُخشى أن نجعل هكذا قاعدةً من الانشقاق والانقسام بين العالم الباطنيّ والعالم الخارجيّ، وبين الحياة الشخصيّة والواقع الاجتماعيّ، وبين الكيان والفعل، وبين الروح والجسد، وبين الحياة الروحيّة والحياة الدنيويّة، وبين الإيمان والأعمال، وفي نهاية الأمر بين الله والإنسان...؟ لا شكّ في أنّ الخطر حقيقيّ وأنّ تيّار العَلْمَنَة يزيد الانشقاق والانقسام تشديدًا. ولذلك سعى تحليلنا في كلّ خطوة من خطواته إلى التمييز، لا إلى الفصل. فإنّ الخطيئة وحدها تفصل، وإنّ

الشيطان وحده يقسم، في حين أنّ روح المسيح يوحّد الإنسان، ويُنسّق الفعل والكيان، ويجمع بين الطبيعة وما فوق الطبيعة، ويُشرك الإنسان والله، والإنسان وأخاه، ويربط بين الحرّيّة البشريّة والنعمة الإلهيّة، ويوفّق بين «الصورة» و«المِثال».

ومع ذلك، فإنّ هذا الاتّحاد ليس هو مُعطًى مكتسَبًا، بل هو مُهمّة واكتساب ومصير، فقد تلقّى الإنسان من الله رسالةً للقيام بها، هو يتمّمها معه في زمن التاريخ، في صميم الواقع الخاطئ الذي هو واقع الإنسان. ويعبّر پول كلوديل عن ذلك الاتّحاد بطريقة شعريّة: «إنّ الأرض مُناطة بالسماء، والجسد مُناط بالروح، وهناك اتّصال بين جميع الأشياء التي خلقها الله معًا، وهي جميعها ضروريّة الواحدة للأُخرى». وما لم يكتمل كلّ شيء، فإنّ الله سيُشرك الإنسان في عمل الخلق والخلاص والاكتمال؛ وهو لن يزال يعمل ويدعوه إلى العمل.

ويروق لنا أن نختم تلك الملحمة البشريّة، ملحمة اشتراك الإنسان في المجيء الثاني المجيد، بهذا النشيد الرائع الذي حرّره الأب تيّار دي شردان اليسوعيّ في شأن المجيء الأوّل، مجيء تجسُّد كلمة الله المتواضع، وهو خطوة أولى على طريق المجيء الثاني المجيد:

«ليست المراحل الهائلة التي سبقت الميلاد فارغةً من المسيح، ولكنّ قوّة دفقِه الجبّارةَ قد تغلغلت فيها. فإنّ الهيجان الذي صاحب الحبَل به قد حرّك الكُتَل الكونيّة، ووجّه تيّاراتِ محيطِ طبقات الأرض الحيويّ. وإنّ الإعداد لولادته قد عجّل تطوّر الغريزة وظهورَ الفكر على وجه الأرض. فلا تتعثّر إذًا تعثُّر الأغبياء بما فَرَض علينا المسيح من انتظار لا نهاية له. فكانت مجهودات الإنسان البدائيّ الخفيّة الهائلة، والجمال المصريّ الممتدّ زمنيًّا، وانتظار إسرائيل القلق، وعبير التصوّفات الشرقيّة المُقطَّر تدريجيًّا، وحكمة اليونانيّين الرفيعة كلّ الرفعة، كانت جميعها ضروريّة لتمكّن ماقُ يسّى والبشريّة، بل والزهرة، من أن تنبت. فكانت جميع هذه الإعدادات ضروريّة كونيًّا وحيويًّا، حتّى يُثبّت المسيح قدمَيه على الساحة

البشريّة. وكان تنفُّس نفسه الناجح والخلّاق يُحرّك هذا العمل كلّه، بقدر ما كانت هذه النفس البشريّة مختارةً لتُحيي الكون. فلمّا ظهر المسيح بين ذراعَي مريم، كان آتيًا ليحمل هو العالم».

الخاتمة

إنّ المسيح هو في آنٍ واحد الخالق والمرجع والاكتمال. أمّا الإنسان الذي خُلق به (dia) فإنّه في علاقة يمكننا وصفها بأنّها أنطولوجيّة معه (en)، في حركة انجذاب نحوه (eis)، في غائيّة يبرِّرها هو وحده (di où)، في انتماء إليه وحده (dè). إنّ الله هو «في مصدر الوثبة وفي منتهى الانجذاب اللذَين لا أعمل أيّ شيء طوال حياتي إلّا أن أتَّبع أو أن أشجِّع حافزهما الأوّل وتطوّراتهما» (پيار تيّار دي شردان).

وتلك العلاقة هي جدليّة بمعنى أنّ الإنسان والمسيح يكوّنان وحدة حقيقيّة، الواحد مُستدعيًا الآخر، والواحد كائنًا مع الآخر، ليؤلِّفا تلك الأخوّة الإلهيّة البشريّة التي لها آب واحد وروح واحد. هذا ما يُسمّيه أوغسطينس - في تعليقه على «الملء» (plérôma: أف ٤/ ١٣) - «المسيح الكامل».

تلك العلاقة الأساسيّة مع المسيح يُدعى المؤمن إلى تحقيقها في صميم وجوده المسيحيّ، في جميع جوانب حياته الروحيّة والدنيويّة، ومن خلالها، في خطيئته وعتامتها. وذلك هو عمل الروح القدس الذي يسكن فيه، مستحثًّا حرّيّته على الانفتاح للمسيح. وتلك هي مشيئة الآب الذي يجذب البشر إلى ابنه (يو ٦/ ٦٥)، وهو «الطريق» الذي يؤدّي إلى الآب (يو ١٤/ ٦)، ليكون الآب «كلّ شيء في كلّ شيء» (١ قور ١٥/ ٢٨).

أمّا غير المؤمن بيسوع المسيح، فإنّه ليس أقلّ وسمًا أنطولوجيًّا بهذا الطابع، فإنّ الآب يخلقه ويريده هكذا ويعدُّه إلى هذا. ومع ذلك، فإنّه، في أثناء وجوده الأرضيّ، يجهل هذا السرّ ولا يختبر، لا غِناه ولا فرحه. ولكن، عند الإنسان الحسن الإرادة، والمشارك في بناء عالم أفضل - كما

بيّناه عدّة مرّات - فإنّ «الشريعة» أو «ضميره» هما طريق حياة، طريق نحو الله (راجع روم ٢/ ١-١٦).

وأخيرًا، ينتهي كلّ شيء بنشيد الفرح، ذلك الفرح الذي «يُعلن دائمًا أنّ الحياة نجحت وأنّها أحرزت تقدُّمًا وانتصارًا. حيثما كان الفرح كان الخلق، وكلّما اغتنى الخلق اشتدّ الفرح» (هنري بِرْغُسُن). عندئذ يتمتّع الله والإنسان براحة «السبت»، أو - بعبارة أدقّ - بالراحة في الفرح الظافر، فرح «اليوم الثامن»، بحسب عبارة آباء الكنيسة الشرقيّين.

نقله إلى العربيّة الأب صبحي حموي اليسوعيّ

من منشورات دار المشرق
صدر للأب فاضل سيداروس اليسوعيّ

١ - في سلسلة «دراسات لاهوتيّة»
- بين وحي الله وإيمان الإنسان، طبعة ٢، ١٩٩٦
- سرّ الثالوث الأحد، طبعة ٣، ٢٠٠٠
- لاهوت التاريخ البشريّ، ١٩٩٧
- مَن أنتِ أيّتها الكنيسة، طبعة ٢، ١٩٩٦
- يسوع المسيح في تقليد الكنيسة، طبعة ٣، ١٩٩٩

٢ - في سلسلة «الحياة الروحيّة»
- خواطر في التبتّل المكرّس، ٢٠٠١
- خواطر في الطاعة الرهبانيّة، ٢٠٠٠
- خواطر في الفقر الاختياريّ، ٢٠٠١
- مدخل إلى روحانيّة إغناطيوس دي لويولا، طبعة ٢، ١٩٩٦
- معنى البرّيّة في زماننا الحاضر، ١٩٩٧
- هويّة الحياة الرهبانيّة، طبعة ٢، ١٩٩٦

٣ - في سلسلة «نصوص ودروس إغناطيّة»
- الرياضات الروحيّة الإغناطيّة، قراءة معاصرة، ١٩٩٩
- الإنسان الإغناطيّ، ٢٠٠١
- بين الروحانيّة الإغناطيّة والروحانيّة الشرقيّة، ٢٠٠٢

٤ - في سلسلة «موسوعة المعرفة المسيحيّة»
- سرّ مسحة المرضى، طبعة ٣، ٢٠٠١
- سرّ الميرون أو التثبيت، ١٩٩٢